علاقة دولة المماليك بالقوى الأوربية

obeikandl.com

obeikandl.com

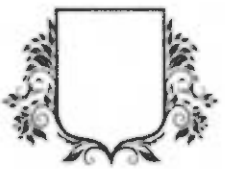

علاقة دولة المماليك بالقوى الأوربية

ارتبطت دولة المماليك بعلاقات وصلات عديدة مع بعض القوى الأوربية، وبخاصة في حوض البحر المتوسط، ولم يكن منتظرًا من دولة المماليك وهي إحدى قوى البحر المتوسط، وصاحبة السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى – لم يكن منتظرًا من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية في البحر المتوسط.

والمعروف أن صقلية ربطتها بحكام مصر من بني أيوب علاقات ودية كانت أبرز أركانها الصداقة بين الإمبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي، وهي الصداقة التي استمرت قائمة بعد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ حيث كانت الهدايا والسفارات متبادلة بين الجانبين، ولا أدل على استمرار عرى هذه الصداقة من أن الإمبراطور فردريك الثاني لجأ إلى تحذير السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بخروج لويس التاسع على رأس حملته الصليبية لمهاجمة دمياط سنة ١٢٤٨ – ١٢٤٩، ويبدو أن سقوط دولة الأيوبيين لم يغير من تلك الصداقة بين ملوك صقلية

وسلاطين مصر، إذ حرص مانفرد ابن فريدريك الثاني على مصادقة سلاطين المماليك، كما حرص سلاطين المماليك على الاحتفاظ بعلاقة الود التي ربطت مصر بصقلية، فقد كان مانفرد ابن فردريك الثاني يتبادل الهدايا مع السلطان الظاهر بيبرس، وقد استمرت هذه العلاقة بين الدولتين بعد عهد مانفرد.

أما الجمهوريات الإيطالية التجارية – وبخاصة البندقية وجنوا – فقد ربطتها بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ، فكان لكل جمهورية قنصل في المدن والموانى الكبرى يرعى مصالحها ، ولم يكن منتظرًا من الجمهوريات الإيطاية أن تضحي بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبي العام ، ولذلك استنكرت إيطاليا – والبندقية على وجه التحديد – إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرص على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ ، وأرسلت رسلها إلى السلطان شعبان تؤكد له أن السفن التي أغارت على الإسكندرية لا تمت إلى البندقية بصلة ، وأن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه.

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد اضطرتها ظروفها التجارية وما كان بينها من مشاحنات إلى الدخول في منازعات أحيانًا مع دولة المماليك، فإن الوضع اختلف بالنسبة لدول أسبانيا النصرانية مثل أرغونة وقشتالة

وأشبيلية، ويبدو أن حرص الدول النصرانية في أسبانيا على عدم وصول نجدات من دولة المماليك للمسلمين في أسبانيا جعل ملوك تلك الدول يسالمون سلاطين المماليك، من ذلك أن جيمس الأول مالك أرغونة تودد إلى السلطان بيبرس وبادله الهدايا، وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين مملكة أرغونة من ناحية ، ودولة المماليك من ناحية أخرى ، فأرسل جيمس الثاني ملك أرغونة عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يطلب منه تسهيل مهمة الحجاج النصارى الذين يذهبون لزيارة بيت المقدس، وكذلك يطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق رعاية تجار كل بلد في البلد الآخر ، وكانت طلبات ملك أرغونة تقابل بالاستجابة من سلاطين المماليك، مما ساعد على استمرار العلاقة الطيبة بين الطرفين.

كذلك تبودلت الرسائل والهدايا بين السلطان المنصور قلاون من ناحية وألفونس العاشر صاحب قشتالة، أما أشبيلية فإن صاحبها ألفونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته، فرد عليه بيبرس بإرسال سفارة تحمل الهدايا، وقد قوبلت سفارة بيبرس بالحفاوة والإكرام في أشبيلية، وبعد انتهاء مهتمها أعد لها ملك أشبيلية سفينة حملتها إلى الإسكندرية.

وجدير بالذكر أن القوى الغربية التي طالما ناصبت دولة المماليك العداء بسبب السياسة الصليبية كانت أحيانًا تسالم المماليك وتطلب ودهم أملًا في

السيطرة على الأماكن المقدسة في بيت المقدس ، من ذلك أن فيليب السادس ملك فرنسا أرسل سفارة ضخمة تألفت من مائة وعشرين رجلًا إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٢٠، ومع السفارة كتاب يلتمس فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين ، ولكن السلطان الناصر غضب لذلك الطلب وأهان سفراء ملك فرنسا، وأمر بردهم إلى بلادهم.

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لدولة المماليك، حتى إن بلاط سلاطين المماليك غدا مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق والغرب جميعًا.